نبوليون والعلم والعمران

نشرنا في مقتطف مارس سنة ١٩٠٣ فصلاً عنوانهُ «مشاهير الزمان» قلنا فيهِ ان احد العلماء بحث في الانكلوبيذيات الكبيرة الانكليزية والفرنسوية والالمانية والاميركية ليستدل منها على اشهر مشاهير الرجال من سعة ما نُشر فيها عن كلٍّ منهم. فوجد ان المقام الاول ليس لسقراط ولا لارسطوطاليس ولا للاسكندر المكدوني ولا ليوليوس قيصر ولا للابلاس ولا لاسحق نيوتن بل لنبوليون بونابرت. فهذا نوع من الاجماع على ان نبوليون اشهر الرجال قاطبة في عرف الاوربيين والاميركيين اذا استثنينا الانبياء والرسل كما استثناهم صاحب هذا البحث

وقد انقضى في شهر مايو الماضي ١٠٠ عام على وفاة نبوليون فذُكر بالاكرام والتبجيل في كثير من البلدان وجاءتنا المجلات العلمية والادبية مدبَّجة بوصف ما فعلهُ للعلم والعمران فرأينا ان نحذو حذوها وننشر خلاصة مختصرة من تاريخهِ ونستطرد الى ما افاد بهِ نوع الانسان في نشر العلوم ووضع القوانين وتسهيل المعاملات وبث الروح القومية بين الامم

ولد نبوليون في مدينة اياشو Ajaccio عاصمة جزيرة كورسكا (١) في ١٥ اغسطس سنة ١٧٦٩ واسم ابيهِ كارلو ماريا ده بونابرته Carlo Maria da Buonaparte واسم بونابرته هذا يطلق على اسر ايطالية كثيرة فطنت واحدة منها فلورنسا سنة ١١٠٠ للميلاد وانقسمت في القرن الثالث عشر الى اسرتين انتقلت احداها الى جزيرة كورسكا في اواسط القرن السادس عشر وكان رجالها حكّاماً وقضاةً ونبوليون من سلالتها. وابوهُ درس الحقوق واجيز لهُ من جامعة بيزا واقترن سنة ١٧٦٤ بفتاة من اسرة رومالينو Romalino وبيتراسنتا Pietra Santa التي فطنت جزيرة كورسكا منذ اواسط القرن الخامس عشر فولدت لهُ اولاً ولدين ماتا طفلين ثم ولدت ابنها جوزف سنة ١٧٦٨ ونبوليون سنة ١٧٦٩. وكان اسمهُ يُكتب هكذا Nabulione. وكانت هذه المرأة عالية الهمة شديدة التدين قامت على تربية اولادها احسن قيام وغرست في نفوسهم حب وطنهم. وقد رأت ابنها بلغ اوج

(١) كورسكا (Corsica) جزيرة كبيرة في بحر الروم امام فرنسا سكانها الآن نحو ٣٠٠٠٠٠٠ نفس ومدينة اياشو عاصمتها وعدد سكانها نحو ٢٠٠٠٠ نفس

مجده ولم ينتهِ زخرف الدنيا مع ما كان لديها حينئذٍ من اسباب الغنى ووسائل الرفاهة بل عاشت عيشة العزلة والاقتصاد كما كانت قبلما تبوأ ابنها سرير الملك . ولما افل نجمهُ ونفي الى جزيرة القديسة هيلانة كتبت الى نواب الدول في مؤتمر اكس سنة ١٨١٨ تتوسل اليهم ان يردوهُ اليها لانهُ كان قد مرض مرضاً لا يرجى شفاؤهُ فلا يخشى ان يناوىء خصومهُ مرةً اخرى. فلم يجب طلبها . ولما بلغها نعيهُ لازمت النوح وكادت تفقد بصرها قبلما توفيت . وكانت وفاتها سنة ١٨٣٦ فعاشت بعد ابنها ١٥ سنة

وكان ابوهُ اديباً محدثاً كبير المطالب يتحين الفرص ويذهب مذهب ڤولتر في عقيدتهِ الدينية ويقول ان الميدان الواسع لاولادهِ انما هو في فرنسا وان فرنسا ستكون علة نجاح اوربا

فورث نبوليون من ابيهِ الرغبة في فنون الادب وحب البحث والاستقصاء واخذ الخصم باية وسيلة كانت . ومن امهِ علو الهمة وسرعة الخاطر وسعة الحيلة . فنشأ من اقدر الرجال في ميادين القتال ومجالس السياسة . وكان اسلافهُ لامهِ قد تزوجوا من سكان كورسكا الاصليين وهم رجال حرب واهل ثارات . واسلافهُ لابيهِ من رجال القضاء وولاة الاحكام كما تقدم فجاء معتدلاً ومع ذلك كان يفتخر بان اسرتهُ ابتدأت بهِ كأنهُ يتمثل بقول الطغرائي القائل

وان كرمتْ قبلي اوائل اسرتي فاني بحمد الله مبدأ سؤددي

كانت كورسكا تابعة للجمهورية جنوى لكن اهلها خرجوا على الجمهورية بقيادة الجنرال پسكال باولي (٢) فاستعانت الجمهورية عليهم بفرنسا فقسمت فرنسا الثورة واستولت على الجزيرة وضمتها الى املاكها وكان ذلك سنة ١٧٦٨ اي قبل ولادة نبوليون فولد كورسكيًّا فرنسويًّا . ولجأ الجنرال باولي الى انكلترا . وكان ابو نبوليون قد انضمّ الى الثائرين فلما دارت الدائرة عليهم انحاز الى الفرنسويين فقرّبهُ كونت ده ماربف Comte de Marbeuf الذي جُعل حاكماً على كورسكا وبعث بنبوليون الى مدرسة برين Brienne الحربية في شرق فرنسا وهو حدث في العاشرة من عمرهِ . وكانت مخايل النجابة والميل الى الجندية قد بدت عليهِ وهو في مدرسة اياجو فبينما كان التلاميذ اترابهُ يتلهون بالالعاب كان هو يتسلّى بضرب الطبل ولعب السيف

(٢) Busquale Paoli بغال من اهالي كورسكا توفي في انكلترا سنة ١٨٠٧

الاَّ ان التدريس في تلك المدرسة كان في يد الرهبان وهم لا يعبأون بالفنون الحربية ولم تكن الآداب مرعية فيها تمام الرعاية فاثَّر ذلك في نفس نبوليون وتقم على ابيهِ انحيازهُ الى الفرنسويين الذين امتلكوا بلادهُ وخُيِّل اليهِ انهُ مطالب بانقاذها منهم

ولم يمضِ وقت طويل حتى بدت براعتهُ في العلوم الرياضية ورغبتهُ في تصفح الكتب التاريخية ولاسيما تاريخ فلوطرخس « مشاهير اليونان والرومان » . واجيز لهُ ولثلاثة آخرين سنة ١٧٨٤ الدخول الى مدرسة باريس الحربية وكان التعليم فيها دقيقاً والتنظيم واقياً فزاد رغبةً في الدرس والاستعداد للانتظام في سلك المدفعية ففاز بذلك وجاز الامتحان سنة ١٧٨٥ واجيز لهُ دخول الجيش مباشرةً بصفة استثنائية. وكان رئيس الامتحان العلاَّمة لابلاس الرياضي المشهور. وجاء في التقرير الرسمي عن نبوليون انهُ كان بارعاً في الرياضيات ولهُ معرفة كافية في التاريخ والجغرافية. فانتظم في الاي المدفعية المعروف باسم La Fère وتمرَّن في كل الاعمال المطلوبة من النفر الى الملازم. وتوفي ابوه سنة ١٧٨٥ فشعر انهُ مطالب بان يقوم مقامهُ في اعالة امهِ واخوتهِ واخواتهِ . وزار كورسكا حينئذٍ فرأى انهُ يجب عليهِ الاهتمام بتحريرها من نير فرنسا. وبدت عليهِ حينئذٍ اول امارات الآمال الواسعة التي عاش فيها بعدئذٍ

ومضت الايام وهو قائم بما يطلب منهُ خير قيام وعاكف على الدرس حتى يعلم كل تفاصيل العمل الذي نيط بهِ . ولم يكتفِ بالدرس بل كان يكتب كل ما يخطر لهُ او يستنتجهُ من درسهِ. ومما كتبهُ عن كرومول « انهُ شجاع ماهر محتال مدَّع. مبادئهُ الاولى الجمهورية السامية اكلتها نار مطامعهِ التي تلتها . ذاق حلاوة الظفر فطمحت نفسهُ الى عزة الملك » . وحاول الانتظام في سلك ارباب الانشاء فكتب ردًّا على قس سويسري دافع فيهِ عن تعاليم روسو

وظهرت بوادر الثورة الفرنسوية في تلك الاثناء لكنهُ كان مشغولاً عنها بامر كورسكا وطنهِ وبثقافة امهِ واخوتهِ وانحراف صحتهِ . ونُشرت حينئذٍ منشورات كثيرة في المواضيع الفرنسوية الوطنية كان يطَّلع عليها ولكن فكره كان موجهاً الى تلاوة كتب التاريخ والادب مثل فلوطرخس ويوليوس قيصر وكورنيل وفولتر

وروسو . وكان لروسو المقام الاول في نفسه وهو الذي حوّلهُ بعدئذٍ من بونابرته(٣) الكورسكي الى بونابرت الجاكوبي(٤) ثم الى نبوليون رئيس الجمهورية فالامبراطور كما سيجيء

وعاد الى اياشو سنة ١٧٨٩ باجازة فوجد ان اخاهُ جوزف قد انضمَّ الى الحزب الجمهوري وجُعل سكرتيراً للنادي السياسي في بلده فانضم هو ايضاً اليهِ وتلاهُ اخوهُ الثالث لوسيان . وفي نوفمبر سنة ١٧٨٩ قررت الجمعية العمومية في فرنسا جعل جزيرة كورسا جزءًا من البلاد الفرنسوية ولها حق التمتع بكل الحقوق الفرنسوية وبكل الاصلاحات التي تجرى في فرنسا . فاستبشر نبوليون بذلك لانهُ صار يحسب نفسهُ عضواً من مملكة عظيمة راقية وانضم الى الحزب الجمهوري . وكان المفهوم حينئذٍ ان الوطنية والجمهورية شيء واحد . وقرأ كتاب منتسكيو (Montésquieu) « روح الشرائع» فتعلم منهُ علاقة العلوم الاقتصادية بالحروب . وكتاب مكيافلي (Machiavelli) فتعلم منهُ وجوب الحزم واغتنام الفرص في الحروب . وكتاب غوبر (Guibert) فتعلم منهُ ان الامة الشديدة الوطنية الحسنة الاستعداد الحربي تفعل العجائب اذا كانت حكومات البلدان التي حولها سيئة الانتظام

وجُعل ملازماً اول في الاي غرينوبل المقيم في ڤالانس (Valence) وكان لهُ اصدقاء هناك نهاض معهم غمار السياسة واقسم يمين الطاعة للجمعية الدستورية بعد ما حاول الملك لويس السادس عشر الهرب من فرنسا . وانتظم في سلك نادي اصدقاء الدستور في ڤالانس وجعل امينًا لمكتبته . وعرض بعضهم جائزة لاحسن رسالة موضوعها اسباب سعادة الانسان فكتب رسالة في هذا الموضوع تدل على انهُ كان قد تعمق في درس روسو وليكرغس . ومما قالهُ فيها ان الاسبرطيين كانوا في هناء لانهم كانوا في سعة من العيش الطعامُ واللباس والايواء موفورة لهم وكل ما يحتاجون اليهِ جداً وعقلاً . وعلى الناس ان يعيشوا حسب نواميس

(٣) يظهر من تاريخ الجبرتي ان اسم بونابرت كان يلفظ حينما جاء القطر المصري بونابرته حسب لفظه بالايطالي

(٤) او اليعقوبي وهو لقب الحزب الجمهوري المتطرف الذي كان في فرنسا وقت الثورة لقب به نسبة لاجتماع اصحابه في نادي الرهبان اليعقوبيين

الطبيعة غير ناسين مطالب عقولهم وعواطفهم. واتحى باللائمة على اهل الطمع. لكن رسالتهُ لم تنل الجائزة بل حسبت الخامسة عشرة من ست عشرة رسالة

وذهب الى كورسكا بالاجازة سنة ١٧٩١ فوجد رجال الدين فيها ناقمين على الجمعية الوطنية . وكان الجنرال باولي قد عاد من انكلترا ولم يعنَ بمساعدة اخوته لكن توفي حينئذٍ رئيس اسرة بونابرت وهو من كبار رجال الدين فورث منهُ نبوليون واخوتهُ ما اصلحوا بهِ حالهم فاشتروا بيتاً صار منتدى للحزب الديموقراطي هناك وللجنود المتطوعة . ووقعت المناظرة حينئذٍ على قيادة هؤلاء الجنود بين نبوليون ورجل آخر اسمهُ موراتي فغلب نبوليون على مناظرهِ واستعزَّ بفوزهِ .لكن هذا الفوز اقام لهُ خصوماً كثيرين ومنهم الجنرال باولي . وظهر من نبوليون حينئذٍ الميل الى السيادة والاستبداد حتى في بيت ابيهِ . وزادت مسافة الخلف بينهُ وبين الجنرال باولي بخصام وقع بين المتطوعة وسكان المدينة فانتهت اجازتهُ ولم يستطع الرجوع واستحق العقاب لكن كانت الحكومة الفرنسوية قد اضطرت ملكها لويس السادس عشر الى اعلان الحرب على النمسا وسردينيا وامست في حاجة ماسة الى الضباط فتغاضت عن تأخرهِ واعطاهُ وزير الحربية رتبة يوزباشي . ثم لما قتل رجال الثورة الملك ونادوا بالجمهورية نفض الجنرال باولي يدهُ منهم قائلاً انهم من قتلة الملوك فاشتد الجفاء بينهُ وبين بيت بونابرت واضطرَّ نبوليون ان يرحل بامهِ واخوتهِ الى فرنسا ولاسيما حينما اعلن باولي انضمام كورسكا الى انكلترا

ووصل بيت بونابرت الى طولون حينما كانت الجمهورية الفرنسوية في اشد ايام محنتها فانها كانت قد شهرت الحرب على انكلترا وهولندا واسبانيا فاحاط بها اعداؤها من كل ناحية برّاً وبحراً . وكان كثيرون من الفرنسويين غير راضين عن هذه الحال . فرحب انصار الملكية في طولون بالجنود الانكليزية والاسبانية الذين جاءتهم بحراً فذعرت الجمهورية من ذلك لان طولون مركز الحزب الملكي فتستطيع ان تقيم البلاد كلها على الجمهورية وتقضي عليها لاسيما وان الحكومة الانكليزية كانت وقد وعدت الملكيين الفرنسويين بذلك . لكن سعد نبوليون هيأ لهُ عملاً عظيماً يشتهر بهِ فان قائد المدفعية جُرح هناك جرحاً بليغاً فأمر نبوليون

ان يحل محلهُ مع انهُ كان قد امر قبيل ذلك بالذهاب الى نيس . فدبّر تدابير حربية بديعة اضطرت الانكليز والاسبانيين ان يتركوا المدينة ويقلعوا بسفنهم

وكان الجنرال دي تيل قائماً على حصار طولون فكتب عن نبوليون ما تعريبهُ « ان كلامي يعجز عن وصف مزايا بونابرت. علمٌ وافر وذكاء بالغ وشجاعة مفرطة فعليكم ايها الوزراء ان تمنوا بهِ لمجد الجمهورية »

وفي طولون تعرّف نبوليون برجال نالوا الشهرة الفائقة في عهده مثل دزه وجينو ومارمو وميرو وسرشه وفكتور

وسقط روبسبير(*) حينئذٍ فخيف على نبوليون لانهُ كان معدوداً من انصاره. وأمر ان يتولى قيادة الاي من المشاة في غرنبل فرنسا فتلكأ لان ذلك يحول دون ما تصبو اليهِ نفسهُ فشُطب اسمهُ من بين اسماء الضباط العاملين . فطلب ان يرسل الى تركيا لتنظيم مدفعيتها ولكن احتاجت الحكومة اليهِ حينئذٍ واعادتهُ الى الخدمة وارادت ان تبعدهُ عن باريس وكان قد اعطي لقب جنرال على اثر استرجاع طولون فجعلتهُ قائداً للجيش الفرنسوي في ايطاليا وذلك في ٢٣ فبراير سنة ١٧٩٦ . وفي ٩ مارس التالي اقترن بجوزفين ارملة الجنرال بوهرنه Beauharnais فان رجال الثورة واخصهم روبسبير كانوا قد قتلوا زوجها واخذوا سيفهُ فبعثت ابنها (وهو فتىً في الخامسة عشرة) الى نبوليون يتوسل اليهِ ليعطيهُ سيف ابيهِ . فاجاب نبوليون طلبهُ واعطاهُ السيف فلما تناولهُ فاضت عيناهُ بالدموع .فتأثر نبوليون من هذا المنظر وذهب الى بيت امهِ ليخبرها بما جرى فلما رآها فتن بجمالها وذكائها وعرض عليها ان يقترن بها فاجابتهُ الى طلبهِ واقترنا في ٩ مارس سنة ١٧٩٦ اي قبلما ذهب لقيادة الجيش الفرنسوي في ايطاليا بعشرة ايام . وبلغ مدينة نيس في السابع والعشرين من مارس فوجد جيوش النمسا وجيوش سردينيا واقفة لهُ بالمرصاد فادار رحى القتال في العاشر من ابريل وقهر النمسويين في ثلاث معارك متوالية ودار نحو جيوش سردينيا وقهرها في معركتين . وتمّ لهُ ذلك كلهُ قبل ختام ابريل لانهُ ادخل خطة جديدة في حروب الجمهورية فان جنودها وقوادهم كانوا يحاربون مدفوعين بحب الوطن لا غير اما هو فجعل للجنود مصلحة في الحرب اي اباح لهم ان يكتسبوا ما يستطيعون

(*) Robespierre من اكبر زعماء الثورة الفرنسوية

اكتسابهُ واعتمد على مبادرة اعدائهِ ومباغتتهم حتى يؤخذوا على غرة ولا يبقى لهم سبيل لجمع قواهم . وجد الجيش الفرنسوي لا يزيد على ٣٦٠٠٠ مقاتل منتشرين على قمم الجبال من نيس Nice الى سافونا Savona وامامهم ٢٠٠٠٠ من الايطاليين (البيمونتيين) بقيادة الجنرال كولي و٣٨٠٠٠ من النمسويين بقيادة الجنرال بوليو ولكل منهما غرض غير غرض الآخر فهاجمهما في المكان الذي يتصلان فيهِ حتى فصلهما ثم واقع الايطاليين وقهرهم وعاد الى النمسويين ومزق شملهم فانهزمت فلول الجيشين في جهتين مختلفتين . واقتفى اثر الايطاليين واضطر ملك سردينيا الى توقيع عقد الهدنة ثم عاد الى فلول النمسويين واوقع بهم ودخل ميلان فقابلهُ اهلها بالترحاب . واخذ من البلاد التي مرّ بها كثيراً من تحفها وكنوزها التاريخية وبعث بها الى باريس فرأى رجال الحكومة فيها ما حبّب اليهم الفوز على الاعداء . واستمرّ على اقتفاء آثار النمسويين وكان قد جاءهم المدد الكبير فطالت الحرب نحو سنة وهو يظهر من البسالة وحسن التدبير ما ادهش كبار القواد الى ان تمّ لهُ النصر معتمداً على نفسهِ غير ملتفت الى اوامر الحكومة الواردة من باريس بفرض الضرائب وخلع الامراء وعقد المعاهدات ويقول انهُ لا يحارب لاجل جماعة من المحامين اللؤماء في باريس . ولما استتب لهُ الامر في ايطاليا باخذ منتوى ومعاهدة رومية وسردينية قصد بلاد النمسا بالذات فطلبت منهُ الصلح ولكنها تلكأت في توقيع شروطهِ آملةً انقلاب حكومة المديرين (ديركتوار) في باريس وكاد يقع ما املت ولكن نبوليون تدارك ذلك وبعث اوجرو الى باريس ليساعد الحكومة على طالبي اسقاطها فتمكنت من القبض عليهم . ولما رأت النمسا ان سلمها جاءت فارغة أسقط في يدها واسرعت في عقد شروط الصلح بمعاهدة كمبوفورميو في ١٧ اكتوبر سنة ١٧٩٧ وبموجب هذه المعاهدة اخذت فرنسا بلجكا والجزائر الايونية واعترفت النمسا بجمهورية سزلبين Cisalpin التي انشأها نبوليون واعطتها لمبرديا وتعهدت ان تساعد فرنسا على اخذ ضفة الرين اليسرى من المانيا . لكن نبوليون سمح لها ان تستولي على استريا ودلماطيا واملاك جمهورية البندقية . وعاد الى باريس في دسمبر . واوجست الحكومة الفرنسوية منهُ شرًّا فعزمت على ابقائهِ بعيداً مشتغلاً بما يشغلهُ عنها فعينتهُ قائداً للجيش الذي عزمت ان تحارب بهِ انكلترا لكنهُ كان عازماً على اجتياح مصر كما سيجيء